آثار المادية

نقلا عن مجلة « الوعى الاسلامى » الكويتية
عـــــدد 132 السنـــــة 11

ان وجود الاتجاه المادى فى اى مجتمع يعتبر اصلا من اصول الحياة الانسانية · على معنى : انه لا يخلو مجتمع بشرى من نواة هذا الاتجـاه على الاقل ثم قد يبقى فى اطار محدود ، وقـد ينتشر فتبدو آثاره ونتائجه واضحة · ولكنه على اية حال موجود وقابل للتوسع والانتشار .

ويـوم ينتشر تتجلى معالمه واماراته ، ثم يصير المجتمع الذى انتشر فيه حتما الى السقوط والزوال ، وهناك اذن ثلاث مراحل تتصل بهـذا الاتجـاه :

المرحلة الاولى : مرحلة وجوده وقابليتـه للتوسـع ·

المرحلة الثانية : انتشاره وتوسعه بالفعل ، وامارات ذلك ·

المرحلة الثالثة : سقوط المجتمع الذى تمكن منه هذا الاتجاه فى حياة افراده ·

والقرآن الكريم يكشف عن هذه المراحـل الثـلاث :

فعن المرحلة الاولى نقرأ قوله تعالى :

« وكذلك جعلنا فى كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون» الانعـام / 123 .

.. فالشق الاول من هذه الآية وهـو : « وكذلك جعلنا فى كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها » يقرر : انه فى كل مجتمع بشرى : ـ فى الماضى او فى الحاضر ، فى الغد القريب او البعيد صغر ام كبر ، فى حالة بدائية او تطورية ـ يوجد بعض العمد والاكابر من أصحاب الاتجاه المادى فى الحيـاة .

وهذا البعض هو الذى عبر عنه هنـا : بـ «اكابر مجرميها » · وجعل هذا البعض مـن « المجرمين » للتدليل على طبيعة الاتجاه الذين يخضعون له فى حياتهم ، وليس ، الا الاتجاه المادى، لانه وحده هو الذى يدفع الى الجرائم ويستحيل ان يكون الاتجاه المقابل ، وهو اتجـاه الايمـان بالله · او هذا الاتجاه الاخير لا يجعل الدنيا ومتعها المادية بحال المنافسة بين الافراد . انما يسعى لينقلهم الى مجال العمل الصالح ، بدلا من مجـال تحصيل المتع الدنيوية · وهو العمل الانسانـى الذى يرتفع فوق النزوات والجنـوح ، وفـوق الخصومات ، والانحرافات ، والجرائم .

واذن فى كل مجتمع بشرى شرذمة او مجموع من اصحاب الاتجاه المادى فى الحياة تتزعمـه ، وتحاول ان تنفث سمومه فى المجتمع · ومحاولـة ذلك هى ما يعبر عنها بقوله : « ليمكروا فيها » · اذ محاولة « المكر » فى « القرية » ـ او فى المجتمع ـ هى محاولة « الفتنة » و « الفساد » .. هى محاولة السير وراء الهوى والشهوة فى غير حد ، وفى غير اعتبار لامر آخر سوى تحقيـق المتعـة الحسيـة .

وفى كل مجتمع بشرى اذن فى اى عهد وزمن ممثلون للاتجاه المادى فى الحياة ممن يعتمد عليهم فى التمثيل ، وتتوفر فيهم صفات الزعامة والرياسة للفكر او الاتجاه · ثم فى الوقت نفسه لا يقتصر نشاطهم على تمثيل الاتجاه ، بل يدعـون اليـه

بالقدوة فى اثارة الفتن ونشر الفساد ، وما يعترض كل قيمة من القيم المثالية ، التى يرتكز عليها الاتجاه الآخر وهو اتجاه الايمان بالله .

ومع وجود هذا الاتجاه المادى فى الحياة كحقيقة اكيدة ومقررة ، ومع فاعليته — وعدم جموده فى وجوده — واخذه المبادرة فى المكر والفتنة، فانه لا يستطيع ازالة الاتجاه الآخر الذى يعارضه، وهو اتجاه الايمان بالله ، من واقع المجتمع ، اى مجتمع فى اى وقت وفى اى مكان .

وهذا القصد هو الذى يعنيه الشق الثانى من الآية السابقة : « وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون » . اى أن مصير اثارتهم للفتن والفساد سيلحق بهم وحدهم فى النهاية . ولانهم فى اتجاههم المادى يقعون تحت زينة الحياة الدنيا ومتعها وحدها ، فهم لا يرون فى سلوكهم وفى السعى لتحقيق انانيتهم وشهواتهم النهاية لهم ، ولا يتصورون : ان العاقبة تدور عليهم وحدهم .

ورد القرآن بذلك هو من الله الذى يتجه اليه المومن بايمانه وعبادته . ومعنى رده هنا اذن : أن الايمان بالله لا يضار من اصحاب الاتجاه المادى فى الحياة ، مهما اثاروها فتنة وفسادا ، وان المومنين كذلك لا يبادون كلية من اى مجتمع بشرى قائم بفعل الزعماء والاكابر لذاك الاتجاه المادى .

والحقيقة التى لا مرية فيها هى : اختلاف المجتمع البشرى اى مجتمع فى اى مستوى وفى اى وقت — وانقسامه الى : اصحاب اليمين واصحاب الشمال — الى المومنين بالله والكافرين به .. الى أصحاب الروحية فى الاتجاه واصحاب المادية فيه :

« ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ،

« ولا يزالون مختلفين .

« الا من رحم ربك ،

« ولذلك خلقهم ،

« وتمت كلمة ربك لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين » هود / 119 .

.. وهاتان الآيتان تقرران معا : حقيقتين :

الحقيقة الاولى : انه باستطاعة الله ان يجعل الناس جميعا امة واحدة ، ومجتمعا واحدا صاحب اتجاه واحد ، ولو شاء لفعل ذلك .

والحقيقة الثانية : ان اختلاف الناس فى مجتمعاتهم الى اصحاب الايمان بالله او اصحاب الروحية فى جانب ، واصحاب الاتجاه المادى والشرك فى الحياة فى جانب آخر ، امر ضرورى قضت به حكمة الخلق للناس انفسهم : « ولذلك خلقهم » واقتضته ايضا ارادة الله فيما وعد به من ملء جهنم من اصحاب الاتجاه المادى فى الحياة والشرك بالله ، سواء من الجن ومن الانس معا : « وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين » .

فاقتضاء حكمة الله فى خلقه : ان لا يكون الناس سواء فى الاتجاه فى الحياة ، وانهم لا يزالون مختلفين فى هذا الاتجاه : « ولا يزالون مختلفين » الى أن تنتهى رسالة الانسان فى هذه الحياة الدنيا — وهى رسالة الابتلاء من جانب : ورسالة الحق مع الباطل من جانب آخر — ويوجب اذن وجود الايمان بالله فى صورة ما ، ووجود الاتجاه المادى فى صورة ما ، فى كل مجتمع بشرى مضى او آت .

وارادة الله التى تتمثل فى اختلاف الناس فى المجتمع البشرى فى اتجاههم فى الحياة بين مثالى ومادى ، او بين مؤمن ومشرك وكافر ، هى قانون الطبيعة البشرية الذى يحكم طبائع الافراد والمجتمعات معا . فتفاوت الافراد فى مستوى الادراك ، وتفاوتهم فى التاثر بالبيئات وبالعبادات والاعراف ، وتفاوتهم فى درجة التطور والنضوج .. يجعل منهم أفرادا مختلفين ، ويجعل من مجتمعهم مجتمعا موزعا فى الاتجاه .

وطبقا لهذا القانون البشرى ليس هناك

بأس فى المجتمع اذ اشتد ظلام المادية ، واحكم اتجاهها ، واغلقت نوافذ الهداية وحطم مصباحها.

وطبقا لهذا القانون ايضا لا تنبغى المبالغة فى التفاؤل والاطمئنان ، اذ اتسعت رقعة الايمان وزاد عدد المؤمنين فى الارض او احرزوا النصر يوما ما . فبهذه المبالغة فى التفاؤل والاطمئنان قد يتسرب منها نشاط الاتجاه المادى ويفسد على الايمان ما تقاول به اصحابه ، ويسبب له فى لحظة اخرى خيبة امل .

وهنا : النصر والهزيمة سنة الحياة . والاختلاف فى الاتجاه من طبيعة هذه الحياة . وعدم فناء او زوال اى اتجاه من اتجاهى الحياة قانون الحياة الارضية نفسها . وعدم اليأس عند شدة الظلام ، وعدم المبالغة فى التفاؤل عند وضوح النهار من مستلزمات الوجود الانسانى والخروج فى الاحساس او فى السلوك عما هو لطبيعة الحياة هنا هو اصطدام مع الطبيعة نفسها ، فيه القضاء على من يسعى الى الاصطدام .

* * *

وعن المرحلة الثانية — وهى مرحلة انتشار الاتجاه المادى فى حياة الافراد — فان الامر فيها ينتقل من وجود الاتجاه المادى فى الحياة وفاعليته الى نشاطه الواسع ، وغلبته او سيطرته على حياة المجتمع .

وامارة التوسع فى نشاط الاتجاه المادى تبدو مرة :

1 — فى سلوك الافراد ، وبالاخص اولئكم الذين اترفوا فى الحياة . فهؤلاء لا يحول بينهم وبين الاستماع بما اترفوا فيه اى حائل . وبذلك يظلمون انفسهم ويظلمون غيرهم .

.. يظلمون انفسهم لانهم يتبعون شهواتهم فى غير حدود ، ويحولون بذلك المتعة الى سوء يعود على صحتهم وعلى روابطهم فى الاسرة والمجتمع ويظلمون غيرهم ، لان مجاوزتهم كل حد فى الاستماع بما حصلوه من نعم وترف يسبب حرمانا للاخرين الذين اصبحت لهم حاجة ماسة الى بعض ما فى ايديهم .

وتصور الآية القرآنية الاتية هذه الامارة فيما تقوله :

« واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه ،

« وكانوا مجرمين » هود / 116 .

.. فوصفت اصحاب الاتجاه المادى حينئذ :

ا) بانهم اتبعوا ما اترفوا فيه فاصبحوا منطلقين فى التبعية ، ينجذبون نحو المتع الحسية وحدها ، وليست لهم فى انفسهم اية ارادة تجعلهم لا ينجرفون وراء هذه التبعية .

ب) وبانهم ارتكبوا الظلم بذلك ولانفسهم قبل غيرهم .

ج) وبأن تبعيتهم لما اترفوا فيه وظلمهم لانفسهم وبغيرهم دفعهم الى الجرائم الاجتماعية من ارتكاب الفحشاء والفسوق والعصيان ، واصبحوا بذلك مجرمين . واصبح مجتمعهم مجتمع جرائم ، يقل فيه اصحاب الفضل الذين ينهون عن الفساد فى الارض .

وفيما آل اليه امر المجتمع عندئذ تقول الآية الاخرى :

« فلولا كان من القرون من قبلكم اولوا بقية ينهون عن الفساد فى الارض ،

« الا قليلا ممن انجينا منهم » هود / 116 .

.. اى ان الفساد استشرى عندئذ لسبب سلوك هؤلاء الماديين بحيث ، لا تقاومه تلك القلة القليلة التى انجيت وانقذت من طغيان الاتجاه المادى وموجته العارمة فى المجتمع . فقلتها تجعلها ضعيفة فى مواجهة الفساد والجرائم الاجتماعية ، واصبح تغيير المجتمع امرا لا مفر منه .

والامر : عند ما يتبع المترفون ترفهم يكون الظلم ، ويكون الاجرام والفساد . وحينئذ يكثر اصحاب الاتجاه المادى ، ويقل المؤمنون الذين من

شانهم ان ينهوا عن الفساد فى الارض · والمؤمنون القلة آنئذ حفظهم الله ورعاهم وانقذهم . والمجتمع القائم الآن مجتمع صاحب اتجاه مادى ، او مجتمع جرائم ، او مجتمع ظلم ، او مجتمع فساد وانطلاق فى الاستماع بالمتع الحسية الشهوية · وقد وصل الى النقطة التى لا بد ان ينحدر منها ويسقط .

2 — وتبدو — امارة التوسع فى نشاط الاتجاه المادى — مرة اخرى فى رفض النصيحة والاستمرار فى اتباع الظلم والاجرام ·

وفيما مضى — فى تاريخ البشرية — كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام تتوالى بالنصيحة للمترفين وزعماء الاتجاه المادى فى الحياة فى ان يوقفوا موجة الظلم والاجرام ، ويعودوا الى السلوك السوى المستقيم . وذلك عند ما تبلغ موجة الظلم والاجرام والفساد حدتها ، ويبلغ الاتجاه المادى فى الحياة مدى نشاطه وشدة طغيانه ·

ولكن الغرور والافتتان بزينة الدنيا ومتعها ، تحت تأثير هذا الاتجاه المادى ، يسد الآذان عن السماع ، ويعمى الابصار عن الرؤية ، ويغلق المنافذ الى القلب واعماق النفوس ، وتستجيب لنصيحة ناصح — ولو كان هو الرسول المؤيد من قبل الله — ولو كان هو من اهل الفضل والخيرة فى قومه ، ولو كان بعيدا عن الغرض الشخصى والزعامة والرياسة ، ولو كان فى سلوك المثل والقدوة للسلوك الانسانى الكريم ، الذى لم يدنسه الانحراف فى تيار الشهوات والمتع المادية ، والفساد ، والفحشاء ، والمنكر . ولو كان . .

ومن هنا كانت قضية رفض النصح ، عند سيطرة الاتجاه المادى على حياة المجتمع لا تخص ناصحا بشخصه ، ولا تقف عند عهد بعينه او عند مجتمع خاص من المجتمعات التى تنجرف فى اتجاه الظلم والاجرام ، تحت تأثير النزعة المادية والمتعة الحسية .

وقول الله تعالى : « وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها :

« انا وجدنا آباءنا على امة ، وانا على آثارهم مقتدون ·

« قال : او لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟

« قالوا : انا بما ارسلتم به كافرون » · الزخرف / 24 .

.. يصور هذه القضية فى رفض النصح من الماديين :

فالآية الاولى من هاتين الايتين — والقرآن يتجه بها الى الرسول عليه الصلاة والسلام — توضح عموم القضية ، وانها لا تختلف اطلاقا ، وان الرد على لسان المنذرين من المترفين كان ردا تقليديا، لم يصحبه مرة ما تأمل موضوعى ولا مراجعة ، الآثار المدمرة والمهلكة للمترفين ولمجتمعهم ، عندما تطغى موجة الانانية والاستهتار والفساد والاجرام . « وكذلك ما ارسلنا قبلك (قبل الرسول) من نذير الا قال مترفوها : انا وجدنا آباءنا على امة (على طريق معين) وانا على آثارهم مقتدون » .

اما الآية الثانية منهما فلاقامة الحجة عليهم ، وتوضيح انهم لا يتبعون الا ما اترفوا فيه ، ويرتكبون انواع الظلم والجرائم لانهم مقتدون باسلافهم فقط ، وانهم لم يحتكموا فى ذلك الى عقل ، ولا الى واقع تاريخى · اذ لو احتكموا الى منطق الانسان السليم لتجنبوا هذا الطريق المؤدى الى الدمار والهلاك ، واتبعوا هداية الرسول . ولو احتكموا الى الواقع التاريخى ، لارشدهم : الى ان عاقبة هذا الاتجاه المادى فى الحياة واحدة ومحتمة، وهى سقوط المجتمع ، وتوالى الويلات والمصائب على افراده · قال : « اولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا انا بما ارسلتم به كافرون » ·

والواقع التاريخى فى ماضيه يعيد نفسه فى يومه وفى غده · فالطبيعة الانسانية هى الطبيعة الانسانية ، لا تتبدل ولا تتغير فى خصائصها . والمجتمع البشرى هو المجتمع البشرى : فى احداثه،

وفى عوامل هذه الاحداث ، وفى نتائجها ·

وطالما الاتجاه المادى فى الحياة كان فى الامس البعيد والقريب فانه يظهر ايضا فى الغد القريب والغد البعيد · وطالما كانت نتائج الطغيان عن طريقه هى انهيار المجتمع وسقوطه ، فبهذه النتائج ذاتها متوقعة عند ما يظهر فى اى وقت فى كبريائه ، وعنجهيته ، وفساده ، ومنكراته ، وفحشائه ·

* * *

اما المرحلة الثالثة — وهى المرحلة التى تلى طغيان الاتجاه المادى فى حياة المجتمع — فهى مرحلة سقوط المجتمع ذاته . وسقوطه آنئذ يعد ضرورة اجتماعية لا سبيل الى تفاديها ·

وهنا القرآن الكريم يشكل هذا القانون الاجتماعى بنتائجه ومستلزماته ، وفى مقدماته ، فيما تنطق به هذه الآية الكريمة :

« واذا اردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ،

« فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » الاسراء / 16 ·

.. فارادة الله هى ذلك القانون الاجتماعى الذى لا تنفك نتائجه عن مقدماته بحال :

والمقدمات فى هذا القانون هى اتباع اصحاب الاتجاه المادى فى الحياة ما أترفوا فيه ، فالفسق والفجور والظلم والاجرام · فاذا تولى المترفون امر المجتمع زاد فسقهم واجرامهم وظلمهم .

اما النتائج الضرورية فى ارتباطها بهذه المقدمات فهى تدمير المجتمع وسقوطه ، ولا راد لذلك بحال : « فحق عليها القول » ·

وما جاء فى الآية الكريمة من « تأثير » المترفين وتوليهم الامر فى المجتمع فهو لتعجيل النتيجة المترتبة فقط . ولذا كان التعبير بـ « فاء » التعقيب: « امرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » ·

اما المبدأ .. اما القانون الحتمى فهو : سقوط المجتمع المادى عند ما تشتد فيه موجة الفساد والاجرام والظلم ، باسترسال المترفين فى ملذات الحياة ومتعها الحسية والمادية ·

واما : « متى » تقع النتائج ؟ — فان تولى المترفون مع فسقهم وطغيانهم شؤون المجتمع فيرتقب بين لحظة واخرى سقوط المجتمع وتدميره· وان لم يقولوا شؤونه فربما يحتاج الامر فى ترتب النتائج ووقوعها الى شىء من الوقت ، حتى تبلغ الموجة العاتية اشدها ، وحتى يصل الظلم والاجرام الى نقطة لا مفر من التغيير والسقوط بعدها · والمفهوم المخالف هذا القانون الاجتماعى هو : أن المجتمع اذا نأى بنفسه عن طغيان الاتجاه المادى ، واتبع هداية الله فى سلوك افراده ، واخضع العلاقات فيه الى « العدل » والتعاون والمحبة و « الاحسان » فانه باق لا يتغير ·

وقد صاغ مفهوم المخالفة هذا فى قانون مقابل ، آية اخرى ، هى :

« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم ، واهلها مصلحون » هود / 117 ·

.. فالآية تنفى على وجه التأكيد ان يغير الله المجتمع ويدمره ، واهله مصلحون معمرون · واصلاح اهل المجتمع هو فى سلوكهم المسلك السوى ، ابتغاء وجه الله ·

واذن هناك قانونان يحتمان المجتمعات البشرية فى بقائها وسقوطها ، ونتائجهما ضرورية فى اللزوم والارتباط لوجود مقدماتهما · وتتمثل فى هذين القانونين ارادة الله جل شانه ·

وفيما تعبر عنه هذه الآية :

« ولقد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين » يونس / 13 ·

وكذلك تلك الآية :

« ولقد ارسلنا من قبلك رسلا الى قومهم

فجاءوهم بالبينات ، فانتقمنا من الذين اجرموا ، وكان حقا علينا نصرُ المومنين » الروم / 47 ·

.. ما يؤكد مضمون القانون الاول ، وهو انهيار المجتمع الفاسد ، عند ما يبلغ فيه الفساد اوجه ، ويتحول النشاط لافراده نحو الاجرام والاستمتاع بالملذات :

فالآية الاولى تنص على ان المجتمعات فى ماضى التاريخ التى باشرت الظلم ورفضت هداية الرسل ، واستمرت فى عدوانها وفسادها وقع بها الهلاك والدمار · وعدوانها وفسادها بسبب طغيان الاتجاه المادى فى حياته · والدمار والهلاك لمثل هذه المجتمعات امر لا مفر منه : « وكذلك نجزى المجرمين » ·

والآية الثانية تعيد نفس المضمون · الا انها تضيف الى الانتقام من المجرمين كامر لا محيد عنه باستقاطهم وتدمير مجتمعهم : ان نصر المومنين امر ضرورى كذلك تكلفت به ارادة الله فى بقاء مجتمعهم: « وكان حقا علينا نصر المومنين » ·

والمجتمع الانسانى ــ اى مجتمع انساني ــ هو فى وجوده فى وضع اختيار ، وفى فترة ابتلاء فى حقيقة امره : اما الى بقاء ، او الى سقوط وفناء من جديد : « ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم ، لننظر : كيف تعملون ؟ » يونس / 14 وفيه موجود على سبيل الحقيقة ايضا : ما يدفع به نحو البقاء ، وهو هداية الله ، وما يدفع به الى السقوط ، وهو الاتجاه المادى فى الحياة .

وليست هناك حاجة الى مزيد فى تاكيد هذا الشان للمجتمع البشرى · وعلى من يشك او تكون عنده بقية من ريب فى تحديد مصير المجتمع نحو اى من النتيجتين عليه ان يراجع التاريخ ، ويعيش فى آثار الماضى قليلا فيبدو له الشان واضحا لم يتخلف عنه مجتمع ما مهما كان وضعه ومهما كانت ظروفه :

« اولم يسيروا فى الارض فينظروا : كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟

« كانوا اشد منهم قوة ، واثاروا الارض . وعمروها اكثر مما عمروها ،

« وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا انفسهم يظلمون ،

« ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوآى : ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » الروم 6 و 10 ·

.. فمجتمع الرومان فى الشرق الاوسط ، ومجتمع الفرس فيما وراء النهرين كانا من المجتمعات البشرية الشامخة فى قوتها وفى عمرانها، وفى انتاجها ، وفى حضارتها على العموم · ومع ذلك لم تغن عنها · هذه القوة ولا هذه الحضارة فى السقوط والانهيار بعد أن استمر كل منهما فى طغيان الاتجاه المادى ، فكان الظلم ، وكان الفساد، وكان الانهماك فى الملذات وكانت ولاية المترفين ورياستهم ، ولم يستمع اى مجتمع منهما لهداية الله ونداء رسالته : « كانوا اشد منهم قوة ، واثاروا الارض وعمروها اكثر مما عمروها .. ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوآى ، ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » ·

واى مجتمع قبل مجتمع الرومان والفرس لم يتخلف عن « ارادة الله » الحكيمة :

« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ، وانشانا بعدها قوما آخرين » الانبياء / 11 ·

.. فهناك مجتمعات عديدة صغيرة وكبيرة ،، عبر التاريخ لم تشذ اطلاقا عن ذلك القانون الالهى · وهو قانون الطبيعة البشرية والمجتمع البشرى ، وهو قانون نافذ آمن به البعض ام كفر.

والقرار للزعماء من النتيجة الحتمية التى تنتظر المجتمع الذى وقع تحت تأثير الاتجاه المادى فى الحياة : فظلم ، وافسد ، وعبث ، واستدبر المشورة والهداية ، واستكبر رؤساؤه وزعماؤه ، واستهزءوا بالمومنين ، وبرسالة الله .. الفرار من الانهيار والسقوط الحتمى لا ينجى احدا ممن

يفر من العابثين والمفسدين · بل ستلقه ان عاجلا او آجلا آثار سلوكه ، وهو سلوك الظالم المفسد ، الذى كفر بنعمة الله عليه ، وهى نعمة الرزق والجاه والمسؤولية ·

« فلما احسوا بأسنا اذا هم منها يركضون·

« لا تركضوا وارجعوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ؟

« قالوا : يا ويلنا : انا كنا ظالمين ·

« فما زالت تلك دعواهم حى جعلناهم حصيدا خامدين » الانبياء / 12 — 14 ·

.. فهذه الآيات تصور : ان محاولات الهرب من النتائج الحتمية ، او محاولات التراجع بعد ان يبلغ الظلم وفساد المترفين من اصحاب الشأن فى المجتمع قمته .. لا تجدى نفعا ولا تحول دون انزال العقوبة بالظالمين والمفسدين ، وفى مقدمتهم الزعماء والرؤساء ·

فمحاولات الهرب من هذه النتائج يشير اليها قوله تعالى هنا : « فلما احسوا بأسنا اذا هم منها يركضون » · ويصور عدم نجاح هذه المحاولة توله جل شأنه بعد ذلك : « لا تركضوا ، وارجعوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم ، لعلكم تسألون » · اى يستوى هربكم من النتيجة الحتمية وعودتكم بعد خروجكم الى وضعكم السابق فى مجتمعكم : فيما كنتم فيه من ترف ، وفيما أقمتم فيه من مساكن ، وفيما كنتم فيه من وضع المسؤول ، وهو وضع الرؤساء والزعماء ، حتى ياتيكم العذاب ·

ومحاولات التراجع بالاعتراف بالذنب تذكرها الآية الكريمة فيما تقول : « قالوا : يا ويلنا ؛ انا كنا ظالمين ؛ فما زالت تلك دعواهم ، حتى جعلناهم حصيدا خامدين » · فاعترافهم بانهم كانوا ظالمين ، وترديدهم هذا الاعتراف عدة مرات ، حتى نالهم جزاؤهم لم يحل دون هذا الجزاء واللحاق بهم ·

وما تحكيه الآيات هنا من محاولات الفرار والهرب ، أو محاولات التراجع والندم ، قد يقع أيضا · وعندئذ يكون القصر هنا هو الزيادة فى تأكيد نتائج الفساد وطغيان اتجاه المادية فى حياة المجتمع، على المجتمع نفسه وعلى افراده ، ينفى ما قد يتعلق ببعض خيالات النفوس وتصوراتها ، من ان الفرار من اسباب الموت قد ينجى منه ، أو ان الهرب من نتائج الجرائم قد يحول دون وقوع عقوباتها على من ارتكب الجريمة ·

* * *

وتاريخ المجتمع البشرى فى ماضيه يعيد نفسه فى حاضره وفى غده .. واحداثه المتشابهة تستتبع نتائج متشابهة كذلك · ولا دخل للتقدم العلمى أو التقدم التكنولوجى — وكذلك لا دخل للبدائية والتخلف — فى الترابط بين الاحداث والنتائج ، وتلازم الوقوع بين الاحداث ونتائجها فى اى وقت يمر بالانسان وبالمجتمع الانسانى ·

ان الاحداث المتشابهة تستتبع نتائج متشابهة ، لانها احداث الطبيعة البشرية المحدودة الخصائص والوظائف · اما التقدم العلمى او التخلف فيه فانه لا يغير خصائص الطبيعة البشرية وبالتالى لا يغير وظائفها الاساسية · وانما يغير الوسائل التى يستخدمها الانسان فى حياته : فى تحصيل الرزق ، وفى الاقامة ، وفى التنقل ، وفى الاستمتاع ودفع المشقة فى كل ما يسعى فيه الانسان ·

كذلك تقدم العلم — او التكنولوجيا — لا يستلزم تقدم الانسانية فى سلوك الانسان · لان التقدم فى السلوك الانسانى يرجع اولا واخيرا الى تقلص مجال الانانية واتساع المجال الجماعى فى تفكير الانسان ، وفعله ، وسلوكه على السواء ·

تقدم العلم قد يساعد على تحكم الانانية · وتقدم التكنولوجيا قد يساعد على الانحراف فى استغلال الطاقات المهنية للانسان · واحداث العالم اليوم واحتكاك الشعوب بعضها ضد بعض هى احدى نتائج الانانية فى المجتمعات ذات التقدم العلمى

والصنـــاعى ·

واذن ليس هناك ما يحـــول اطلاقـــا دون استتباع الاحداث لنتائج معينـــة فى المجتمعـــات الانسانية الحاضرة والمستقبلة ، على غرار الاحداث والنتائج التى وقعت فى امس هذه المجتمعات ·

والقوانين الاجتماعية ــ او الترابط بيـــن الاحداث والنتائج ــ هى اذن من الحقائق الضرورية وربما يساعد تقدم العلم او التقدم الصناعى فقط فى هول الاحداث ونتائجها ان وقعت اليوم ، زيادة عنها عند وقوعها فى الماضى ·

فالاتجاه المادى فى الحياة ان كان من الممكن أن يتحرك الى « الطغيان المادى » اليوم فى اى مجتمع معاصر فان مستوى الطغيان وآثاره عند ما تقع لا تقارن بالآثار وبالمستوى الذى وقع فـــى القرون والمجتمعات السابقـــة · بفضـــل التقـــدم الصناعى فى الابـــداع والخلـــق لوسائـــل جديـــدة يستخدمها صاحب الاتجاه المادى المعاصر فى الظلم· والفســـاد ، واتبـــاع التـــرف ، والاستمتـــاع بالملذات ، وكذلك فى الاستهزاء بآيات الله وبهدايته، وفى السخرية من المؤمنين او الضعفاء ·

والطغيان كذلك بفعل الاتجاه المادى عند ما يتحرك فى اى مجتمع معاصر اليوم لا يسبب سقوطا عاديا للمجتمع الذى يطغى او يظلم او يباشر الفساد والعبث · وانما نوع السقوط والانهيار للمجتمـــع المعاصر فى وصوله الى قمة الطغيان سيكون شديد العنف ، بحيث لا يشبهه على الاطلاق ما تم فى مجتمع سابق بالامس :

وسائل المتعة اليوم كثيرة وعديدة ·

ووسائل الظلم والفســـاد ، والاكـــراه ، والضغط ليست عديدة فقط وانما هى فظيعة فـــى آثارها وفى بعدها عن كل شائبة للانسانية ·

ووسائل التدمير والتخريب ، والدمـــار ، رهيبة لا توصف رهبتها وشناعة نتائجها ·

.. كل ذلك بفضل تقدم العلـــم ، والتقدم الصناعى · واذن الذى يتغير اليوم فى المجتمعات الانسانية المعاصرة ليس هـــو تـــلازم الاحـــداث لنتائجها ــ اى تلازم الطغيـــان والظلـــم والفساد والعبث والمبالغة فى الترف لسقوط المجتمع ــ وانما « النوعية » و « المستوى » سواء اكانت نوعيـــة الاحداث ومستوياتهـــا ، أم نوعيـــة النتـــائـــج ومستويـــاتهـــا ·

وكتاب الله عند ما يبلور ارادة الله فيمـــا يمكن ان يعبر عنه بقانون المجتمع ، لم يتعرض الى نوعية الاحداث والنتائج ولا الى مستواها · وانمـــا فحسب ذكر « الترابط » بين :

ــ الاتجاه المادى فى الحياة وآثاره ·

والاتجاه الانسانى او الروحى او الايمانى بالله وآثاره ايضا ·

.. ذكر الترابط بين :

الشرك ، والطغيان ، والجرائم الاجتماعية ، والظلم وسوء استغلال نعمة الله مـــن جهـــة ، وضرورة سقوط مجتمع المشركين الماديين الطغاة ، الظالمين ، والعابثين والمفسدين من جهة اخرى .

.. وذكر الترابط كذلك :

بين الايمان بوحدة الله فى الوهيته ، واتباع هدايته ، وعدم المبالغة فى الاستماع بالمتعة الحسية، وسلوك طريق العدل والاحسان من جهة، والنصر او البقاء ولافراده المومنين من جهة اخرى .

وما وراء هذا الترابط فى مستوى الاحداث ونتائجها فهو متروك للظروف التى يعيش فيهـــا المجتمع ، والامكانيات فى الوسائل ونوعها التـــى يستخدمها الانسان فى حياته ·

والحقائق الثلاث التى لا ريب فيها اطلاقا ، والتى هى مرتبطة بطبيعة الانسان وطبيعة مجتمعه فى كل وقت ومكان ، هى :

1 ــ ان الاتجاه المادى فى الحياة يعيش داخل الفرد والمجتمع معا ·

2 ــ ان هذا الاتجاه قابل للانتشار والتوسع

والسيطرة على حياة المجتمع ·

3 ــ وانه اذا سيطر هذا الاتجاه على حياة المجتمع فأصبحت حياة طغيان وظلم وفساد ، وشرك ، فسقوط المجتمع ضرورة لا مفر منها ·

اما ما بقى على المجتمع ·

اما ما يحفظ على علاقات الافراد فيه الود والصفاء ، والتآلف ، اما ما يقيه شرور اعدائه واعتداءاتهم ·

اما ما يجعله فى نصر دائما ، وفى قوة دائما، وفى عزة دائما ·

.. فهذا الايمان بالله وحده ·

« وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ·

« وكنا نحن الوارثين ·

« وما كان ربك مهلكى القرى حتى يبعث فى امها رسولا ، يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلك القرى الا واهلها ظالمون » ·

« وما اوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وابقى افلا تعقلون ؟

« افمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه ·

« كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين » القصص / 57 ــ 61 ·

* * *

ان المجتمعات المعاصرة ــ ان فى الشرق او فى الغرب ــ هى مجتمعات مادية ، وجود الله فى حياتها وجود خداع او وجود عدم · يسيطر الاتجاه المادى فى الحياة على كل جوانب هذه الحياة منها ·

ولانها مجتمعات مادية هى فى صراع غير منقطع · وفى صراع بعضها ضد بعض تعيش جميعها فى قلق ورهبة ، واعداد ليوم « الفضل » على هذه الارض وحدها · وما تعده ليوم الفضل هو لتدمير البشرية فى لحظات ، وفى الوقت نفسه على حساب حياة العشرات من ملايين الناس كل يوم ·

وهذه المجتمعات المادية فى تقدمها العلمى والتكنولوجى تخدم غرضا واحدا ، هو غرض الصراع .. هو غرض الارهاب فالفناء · وفى الوقت نفسه موجات الظلم والفساد ، والانحلال ، والسخرية بدين الله ، والتنديد بالضعفاء ، والاعتزاز بالقوة المادية وحدها تعد من الظواهر الواضحة لاتجاه هذه المجتمعات ·

فاذا انتهى امرها الى السقوط والى التقييد فسيكون سقوطها غير متصور فى آثاره ونتائجه على البشرية كلها ، وليس على افراد مجتمعات الشرق او مجتمعات الغرب ·

اليس الصراع بين هذه المجتمعات هو نذير سقوطها وتغيرها .. ؟

اليست الحرب الثالثة امرا حتميا للتعبير عن تغييرها .. ؟

اليست المجتمعات القادمة هى مجتمعات ايمان بالله وبالمثل الانسانية ، وليست مجتمعات طغيان بالقوة ، والحاد بالله ، ان كانت للحياة الدنيوية بقية اخرى فى تقدير الله .. ؟

تلك هى طبيعة المجتمعات تنبثق عن ارادة الله وحده ·